مقدمة

مارك توين المصرى

بقلم/ السيد يسين

لم أدرك مدى صعوبة كتابة هذا التقديم للكاتب اللامع د. عمرو عبد السميع، إلا حين خضت فى أصول كتابه الجديد «جمهورية الحب: أوراقى عن الفن والثقافة».

عمرو عبد السميع كاتب ومحاور له مذاقه المتفرد، سواء فى اختيار موضوعات حواراته الشهيرة أو مقالاته السياسية البارزة أو تعليقاته الفنية والأدبية.

لقد أتيح لى أن أتفاعل شخصيًا مع العالم الفكرى الرحيب لعمرو عبد السميع، حين أجرى معى منذ سنوات حوارًا طويلا تناول فيه عديدًا من الموضوعات السياسية الحساسة والمشكلات الثقافية الراهنة. وأدركت للوهلة الأولى أننى أمام ذهن متقد وقدرة على توليد الأسئلة، وطريقة خاصة فى التعبير عن الرأى.

هو ليس محاورًا سلبيًا على الإطلاق، يطرح عليك السؤال ويتركك تسبح فى نعيم الإجابة المسترسلة بلا انقطاع، بل إنه يقاطعك فى الوقت المناسب، ويلقى عليك سؤالا مفاجئًا، يجعلك تصحو من عالم الإجابات الرتيبة، لكى تقدح زناد فكرك، وتمارس كل طاقتك على الإبداع، وتجيب على هذا المثير الجديد. والعجيب أنك تكتشف حين تقرأ الحوار منشورًا، أنك أبدعت إبداعًا فوريًا للإجابة على أسئلته المباغتة، بصورة تلقائية تعكس عمق الاستثارة الفكرية التى أحدثتها الأسئلة.

وقد بلغ من فرط إعجابى بالحوار الذى أجراه معى عمرو أننى أعدت نشره فى مقدمة كتابى «مصر بين الأزمة والنهضة: أوراق باحث مصرى» الذى ضم

مقالاتى التى نشرتها عبر سنوات فى مجلة «الأهرام الاقتصادى»، لأننى أحسست أن هذا الحوار هو أفضل مدخل له، فهو سيتيح للقارئ أن يستكشف عالمى الفكرى، من خلال الأسئلة والتعقيبات بالغة الذكاء التى طرحها هذا المحاور العبقرى. وقد سعدت للغاية حين أقدم عمرو عبد السميع على نشر حواراته فى السياسة والأدب والفن فى مجموعة كتب، يمكن اعتبارها أبلغ تعبير عن أجواء المناخ الثقافى المصرى فى العقود الأخيرة.

ولعمرو عبد السميع وجوه متعددة، فهو أولاً باحث أكاديمى ممتاز، مارس التدريس من قبل فى كلية الإعلام، وهو صحفى لامع، ويشهد على ذلك تحقيقاته الصحفية ومقالاته فى الأهرام عن المناخ السياسى الإنجليزى بكل تطوراته وتقلباته، وأصبحت كل هذه التحقيقات مصدرًا لا غنى عنه لمعرفة تضاريس الخريطة السياسية البريطانية.

ولكنه أيضًا ـ كما ظهر من كتبه الأخيرة ـ كاتب ساخر على أعلى مستوى، ونعلم جميعًا أن هناك ندرة حقيقية فى الكتاب الساخرين، لأن الكتابة الساخرة تقتضى أولاً موهبة فطرية فى اكتشاف التناقضات، ومهارة خاصة فى الأسلوب لعرضها والتعليق عليها.

وفى تقديرى المتواضع أن عمرو عبد السميع بالرغم من أنه انضم أخيرًا إلى قبيلة الكُتّاب الساخرين فى مصر، إلا أنه يتميز عنهم جميعًا بالمضمون الفكرى العميق لكتاباته. وهو لا يسخر لمجرد السخرية، أو لإضحاك القراء، ولكنه يسخر كنوع من النقد الاجتماعى اللاذع لسلبيات الحياة فى المجتمع المصرى. وهو فى سبيل تحقيق هدفه لا يقنع بعرض المفارقات فى الحياة السياسية أو الاجتماعية أو الثقافية، وإنما يبتدع شخصيات مكتملة الملامح تعبر عن أنماط سلوكية متعددة، ولذلك تبدو بعض كتبه كما لو كانت رواية نقدية طويلة، أو مجموعة قصص أو اسكتشات قصيرة، حافلة بالنقد اللاذع. ولعل مما يعبر عن هذا النمط من كتابات عمرو عبد السميع، كتابه الأخير «الأشرار: لوحات ساخرة من مصر المعاصرة» وهى لوحات حافلة بالوصف السوسيولوجى العميق للمناطق العشوائية فى القاهرة، والتى أنجبت ـ إن صح التعبير ـ شخصيات عشوائية، تتسم بالوصولية

والانتهازية والرغبة العارمة فى «الوصول» السياسى والاجتماعى، حتى لو تم ذلك من خلال سحق كافة القيم النبيلة والرفيعة.

وحتى يطل القارئ إطلالة سريعة على أسلوب عمرو عبد السميع، نسوق المقدمة الافتتاحية لكتابه «الأشرار»، لنتعرف على ملامح الأسلوب الساخر والأخاذ:

«أطال صبرى عكاشة على، النظر إلى حذائه الأبيض الناصع، فاسد الذوق، قبل أن يهم بالخروج من بيته الذى يحمل رقم أربعة فى حارة الزواتنة، منشية ناصر.

شعر أن نظراته ترصع حذاءه الجديد بنياشين إعجاب، وأوسمة إكبار، جميعها من الطبقة الأولى، وجميعها إلى من، أو إلى ما لا يستحق، كالعادة التى أصبحت عُرفًا، ثم تطورت لتصبح قانونًا سياسيًا واجتماعيًا وثقافيًا فى مصر المحروسة! وسرت فى جسده رعدة خفيفة من فرط النشوة، أعقبها بتلعيب أصابع قدمه داخل الحذاء.

وقبل أن يخطو بطل هذه اللوحات خطوة واحدة إلى الفراغ الذى يلى عتبة بيته، ممتطيًا صهوة هذا الحذاء الجديد، معجبانيًا، ومختالاً، ومتجاوزًا كل السقوف المتعارف عليها لإحساس الزهو الإنسانى، ربما يلزم أن نطل معًا على الحى الذى يتحتم على صبرى عكاشة أن يخترقه كل صباح، فى طريقه إلى عمله بصحيفة الشعلة، المنارة الفكرية والصحفية، القديمة، والراسخة، التى يعرفها الجميع».

هكذا يبدأ الكتاب، وينتقل من الشخصية إلى الوسط الاجتماعى يمارس تشريح تناقضات المجتمع بصورة تجعل القارئ ـ من فرط المتعة الفكرية ـ يقرأ الكتاب ويعاود قراءته أكثر من مرة.

واليوم يفاجئنا عمرو عبد السميع بكتابه الجديد «جمهورية الحب» الذى جمع فيه أوراقه عن الفن والثقافة. وهو ـ كما يقرر ـ احتفال بالعبقرية والإبداع، سواء تمثلت فى مسرحية إنجليزية أو مصرية، أو فى كتاب، أو رواية، أو ديوان شعر، أو مجموعة قصص قصيرة.

وهذا الاحتفال بالإبداع لا يمكن أن يصدر إلا عن إنسان محب فعلاً للفكر والفن، وهو يريد ألا يقصر المتعة التى يستقيها من هذه الأعمال الفكرية والفنية على نفسه، وإنما هو ـ بالكتابة ـ يحاول إشراك أكبر عدد من القراء، وهو يعلق وينقد ويبشر بالأقلام الجديدة أو الفنانين الواعدين.

وقد لفت نظرى فى كتابه الممتع حاسة الانتقاء الدقيقة لعمرو عبد السميع، فهو يختار وينتقى، ويقف طويلاً لمحاورة النصوص ـ مسرحية كانت أو فكرية أو فنية ـ من خلال منظور معرفى وجمالى متكامل. وهو بالتالى لا يمكن أن تفلت منه الأفكار الأصيلة والصياغات المبتكرة.

انظر مثلا كيف يبدأ تعليقه على مسرحية «آرت»:

« أعرف أن هذه المسرحية الجميلة، التى شاهدتها على خشبة مسرح ويندهام فى الوست إند بعنوان «آرت أو فن» من تأليف ياسمينا رضا، وترجمة كريستوفر ميتون، وإخراج ماثيو وارشى، هى من نوع الأعمال الفنية التى تلقى بمرساة ثقيلة فى مرفأ العقل، إذ استقرت على شاطئه لتبقى لا تزول!».

وهو يستخلص ببراعة شديدة الخيط الفكرى الذى تقوم عليه المسرحية ويقول: «. . . إذا كانت الصداقة تعتمد على اتفاق ثنائى ضمنى، فما الذى يمكن أن يحدث حين يقوم أحد أطرافها بفعل شىء مختلف عن حدود هذا الاتفاق الضمنى وهو شىء غير متوقع؟

وهنا يبرز تساؤل يتفرع من هذا السؤال الكبير وهو: «هل أنت من تتصور أنك تكون، أو هل أنت من يتصور صديقك أنه يكون؟» هذا هو السؤال الإنسانى/ الفلسفى المحير، الذى تطرحه المسرحية فى بعدها الأول البسيط».

وهو فى تناوله للمبدعين المصريين والمصريات، يتناول ـ مثلاً ـ الروائية أهداف سويف، ويقدم منظورًا مختلفًا لتحليل إنتاجها الإبداعى هو «الاحتجاج».

ويقرر: «كانت أهداف ابنة للاحتجاج. احتجاج على سلطة الهزيمة واحتجاج على سلطة الرجل، واحتجاج على ما يمكن تسميته سلطة المجال الاجتماعى. كانت جزءًا من الإجابة الرافضة على إضفاء صفة «مقدس» على كل شىء».

كانت تلك هى قراءته لمفتاح فهم النصوص الإبداعية لأهداف سويف التى عاشت فى الجامعة عام ١٩٦٨ مناخ هزيمة يونيو الكئيبة.

ولا يتسع أمامى المجال لاستعراض أبرز المقالات النقدية الممتعة التى خطها قلم عمرو عبد السميع، كل ما أستطيع قوله أنه بالنسبة لى يمثل: «مارك توين» المصرى، وهو الكاتب الأمريكى الساخر، الذى أمتعنى منذ عقود طويلة من الزمن، وأنا أبدأ رحلتى المبكرة مع القراءة.

ولكنه فى هذا الكتاب يكشف عن وجه أصيل من وجوهه المتعددة، وهو وجه الناقد الفنى الموهوب، القادر على استخلاص الدلالات الأساسية من النصوص، تسنده فى ذلك ثقافة بالغة العمق فى الفكر والفن والأدب والثقافة.

ستجد نفسك فى حوار متصل مع عمرو عبد السميع، قارئًا ومتذوقًا ومتمتعًا. وبالنسبة لى فحوارى لا ينقطع معه، سواء من خلال القراءة أو الحديث، لأنه دائمًا يفتح أمامى آفاقًا جديدة، ويُحيى نفسى من فرط تمتعى بموهبته الفذة فى الكتابة الساخرة.

السيد يسين

مقدمة المؤلف

دفاع عن الجمهورية

جرت العادة أن يقول بعضنا لبعض: إن موضوعًا بعينه، أو فكرة بعينها، هى «مملكتى» التى لا «ينازعنى» فيها أحد!!

ولكننى أريد لما سوف أطرحه على مايلى من أوراق أن يكون «جمهوريتى» التى أتوق لأن «يشاركنى» فيها كل أحد!!

هى آراء وأفكار، لا أراها إلا اختزالاً لمعنى الشوق للمستقبل.. معنى التطلع إلى قُدّام.

هى عملية تقصٍّ، وتعقب، ومرافقة ـ تتم أحيانًا بانقطاع حقيقى كامل ـ لحالات إبداع كبرى، ولنتاجات الفكر والثقافة رفيعة المقام، فى ساحات إنسانية، تسقط الحدود، ولا تعترف بالمسافات.

هى ـ كذلك ـ احتفالات فرح بمواهب مصرية وعربية، أرى أننا لم ننتبه إليها الانتباه الواجب، أو نفسح لها المكان، ونعترف لها بالمكانة التى تستحقها.

كان بداخلى إيمان يقينى كبير، يؤكد لى فى كل لحظة أننا «إذا سقطنا فى بئر عدم الإمكان.. ولم نحتفل بالموهوبين حولنا، ولم نفرح فرحًا إنسانيًا صافيًا ومجلجلاً بإبداعاتهم، وإضافاتهم الجميلة، وسجنّا أنفسنا فى أوهام غبية عن مجايلات تمنع كتيبة الموهوبين الشابة من أن تحتل مكانها تحت الضوء.. أو عقد كئيبة تريد تجميد حياتنا عند اللقطة الأخيرة، لما يتصوره بعضهم نهاية النبوغ.. ورحيل العمالقة.. إذا حدث هذا.. تكون الأمة كلها قد وقعت فى فخ (الأزمة) وأهدرت فرصها فى مستقبل جميل.. لصالح ماضٍ لا يستطيع أحد أن يجزم بأنه كان يمثل ـ بالضبط ـ طموحها وأملها، وصورتها التى يجب أن تكون»!

ومن هذا المدخل.. من هذه البوابة..

كتبت بعض فصول هذا الكتاب عن «هؤلاء»، وأنا أتعمد ـ مع سبق الإصرار والترصد ـ أن تكون المساحة المادية التى تمثلها صفحاته، والمساحة الرمزية التى تمثلها أفكاره، هى «الجمهورية» التى أتشارك فيها مع الجميع حديثًا متصلاً عنهم، وفرحًا مستمرًا بهم...

ومن هذا المدخل.. من هذه البوابة..

كتبت بعض فصول هذا الكتاب «لهؤلاء»، أحكى لهم ـ فى تراسل حميم وطويل ـ عمّا شاهدت من الأعمال والإبداعات الفنية العالمية لننخرط جميعًا فى حديث «المشاركة» مرة أخرى، ولنؤكد ـ من جديد ـ ارتباط «المواطنة» الذى يربطنا بجمهورية الفن والثقافة، مهما تباعدت بنا السبل، أو اتسعت بيننا المسافات!!

.....

غير أن فكرة الجمهورية ـ فى هذا السياق ـ ليست نزوعًا نحو بناء «اليوطوبيات» أو المدن الفاضلة، النقية.. البيوريتانية، التى تسبح على موجات أحلام وأوهام ذهبية، تتصور أنها مادامت اعترفت بالعبقريات الصاعدة، فإن العالم كله قد اعترف.

كما أن فكرة الجمهورية ـ فى هذا الإطار ـ ليست إقرارًا أو استقرارًا لقيم عادلة وحقيقية أو سباحة على موجات أحلام وأوهام أخرى تتصور ـ كنتيجة لهذا كله ـ أن الدنيا قد دانت وخضعت للمعايير بتسامح ومثالية!

وبيقين.. لقد أصبح على مواطنى هذه الجمهورية أن يدافعوا، وأن يزودوا بأقصى درجات الإقدام الجسور عن سيادة المعايير، وأن يدرءوا غائلة موجات الجهالة، والحقد، والحصار، والنفى، والمخاصمة، والاستعباد.. بعبارة أخرى يدافعون عن حدود جمهوريتهم.. (المساحة الحرة التى يتشاركون فيها الفرح الحقيقى بكل إبداع مصرى.. عربى.. وإنسانى)، ويواجهون التأثير الكئيب لواقع تأسس على عدم الاعتراف، وقطع الاسترسال، وإرباك الجمل الإبداعية، واحتكار الظهور، فضلاً عن مقتضيات الصعود السالك السريع، الغامض

والمضبب، الذى لم يستطع أحد حل رموزه وطلاسمه، أو فك تشفيره، ومن ثم تفسيره!!

. . . . . .

أوراقى فى الفن والثقافة - إذن - يتوزعها اهتمامان، أحدهما الكتابة عن «هؤلاء العباقرة الجدد»، وثانيهما الكتابة إلى «هؤلاء العباقرة الجدد المسئولين عن الإبداع فى كل مكان».

والحقيقة أننى أحتضن هذه الأوراق باعتزاز أثير وكبير، إذ أنها تمثل وسط مئات الاهتمامات الشخصية والمهنية (التى عشت فيها، وعاشت فىّ) المجال الأكثر قربًا من نفسى وعقلى.

لقد ربيت ونشأت على أن الثقافة هى لفظة أكبر بكثير من محاولة اختزالها فى مقاييس قزمة، لتطلق على بعض أعمال شبه الفن، أو شبه الإبداع، أو محاولةُ قصرها على ما تقدمه بعض المؤسسات الإعلامية، والتى تشبه فى تبنيها لسياسات ترويج هذه الفنون والإبداعات سياسات الرومان فى إلهاء الشعب بالخبز والسيرك!!

الثقافة لفظ كبير.. لفظ كلى..

الثقافة هى الحضارة، وهى تشتمل - فيما تشتمل - على العمل المهنى، والمجهود البدنى، وأسلوب الحياة اليومية، وابتكارات الشعب، ولا يمكن - والحال كذلك - أن تتم إهانة لفظة ثقيلة ومهمة على هذا النحو، وإذلالها، وتوظيفها فى أعمال صغيرة لا تتناسب مع منزلتها عالية المقام!

كما ربيت ونشأت على الاعتراف المستمر بالوظيفة الاجتماعية للفن، بما يجعلنى - حتى اليوم - مدركًا وفاهمًا أن أداء الفن لهذه الوظيفة هو أحد الأركان التى على أساسها ننظر إلى حقيقية هذا الفن، بل ووطنيته أيضًا.

بل وربيت ونشأت - إذا جاز لى أن أستخدم هذا المدخل الشخصى - فى ظل حضور طاغ لعبقرية أب عملاق، كان مندمجًا دائمًا - عبر الفن - فى معارك البلد

الوطنية الكبرى، ثم كان هاجسه المزمن هو مدى الالتزام الاجتماعى الذى يتبدى فى أعماله الكاريكاتورية، أو التصويرية، أو الأدبية، والذى لخص نفسه فى شكل انحياز قاطع إلى الفقراء.

وكل ما ربيت أو نشأت عليه كان يكرس ارتباطى بالنتاج الثقافى الذى هو ارتباط ـ بشكل أو بآخر ـ بالنتاج الإنسانى للشعب، أو الوطن، أو الكون.. فى عالم شفت فيه الحواجز أو تلاشت!

وكل ما ربيت أو نشأت عليه كان يبلور جوانب عقيدة ثقافية، هى فى ذاتها مفهوم يُفَسَّرُ للوطنية من زاوية لم يعتدها الذين اعتبروا أن الحديث عن الوطن يمكن أن يكون عوضًا عن العمل من أجله!!

ربما ستكون هذه العقيدة هى سبب تكرار ستلحظه فى صفحات الكتاب المقبلة، لإحالات مستمرة إلى مرجعيات فنية وثقافية بعينها، سواء كانت أعمالاً إبداعية، أو كانت جملاً شهيرة أشبه بالقوانين النقدية، أو المنطقية، أو اقتباسات من تخليقات قديمة. إنها بالنسبة لى تعاليم، وتراتيل هذه العقيدة الثقافية، التى أحفظها عن ظهر قلب، وتستحيل فى ذهنى معيارًا ومقياسًا به أقيس انحراف أو انطباقية أى عمل إبداعى، على معايير الفن وقيم الوطنية، كما أختبر مدى صدق مقولاته الفلسفية والتقنية.

ربما ـ أيضًا ـ ستكون هذه العقيدة الثقافية سببًا فى منهج المقارنة الذى ستجدنى عمدت إليه بشكل متكرر كذلك بين الأعمال العالمية، والإبداعات المحلية، إذ تظل المقارنة واردة حاضرة فى الروح، والذهن، ما كانت أفكار الزهو الوطنى والارتباط بالشعب واردة وحاضرة هى الأخرى.

وربما ـ أيضًا ـ كانت هذه العقيدة الثقافية سببًا فى نزوع سطورى المقبلة إلى معانقة مفهوم ديمقراطية الثقافة، وبحرارة، إذ أن ثقافة غير ديمقراطية ستكون ـ بالقطع ـ من ذلك النوع الذى يختزل الكلمة فى معان قزمة، أو تعمد إلى أداء وظائف قليلة القيمة عبر أجهزة تعمد إلى إلهاء الشعب بالخبز والسيرك!

. . . . . .

نعم، أحتضن أوراقى هذه فى اعتزاز أثير وكبير، ويختلط فيها التكوين الشخصى بالتنشئة الاجتماعية، بالدراسة، والمتابعة، غير أننى على اعتزازى - وعلى اعترافى - بالمؤثر الشخصى الذى كان هاجسًا يدفع إلى الارتباط بالفن مرة، وهاجسًا يدفع لأن أمنح العباقرة الجدد من حولى إحساس احتفال حقيقى بإبداعهم وفكرهم مرات، لم أرَ - قط - أن هذه الأوراق هى «مملكتى» التى لا «ينازعنى» فيها أحد، ولكننى رأيت أن هذه الأوراق هى «جمهوريتى» التى أتوق لأن «يشاركنى» فيها كل أحد.

د. عمرو عبد السميع

لندن - مای فير

يناير ١٩٩٩